

الجهاد بين ماضٍ وحاضر



أ. د. عبد الحميد عبد المنعم مذكور (*)

تمهيد :

كان المسلمون على وعي بأنهم أمة ذات رسالة عظيمة يجب عليهم نشرها وإبلاغها إلى الناس؛ لأنها رسالة عالمية جاءت للبشرية جمعاء، فلم تكن مقصورة عليهم، ولا خاصة بهم، وهي ليست محصورة في جنس من الأجناس، ولا في لون من الألوان، ولا في زمن من الأزمنة، وقد تعلم المسلمون ذلك من القرآن الكريم، منذ عهد الإسلام الأول، وبشَّرَ به رسول الله ﷺ - وهو وأصحابه في مكة يتعرضون للإيذاء، والتنكيل، والحصار، والمقاطعة. وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨) .

- ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ١) .

وقد كانت هذه الرسالة التي جاء بها الإسلام رسالة إنسانية أخلاقية تتضمن الدعوة إلى الخير العام، وتعمل على تحقيق كرامة الإنسان، وإعلاء شأن العدالة،

(*) استاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وتحرير الإنسان من الظلم والعبودية والاستبداد والخضوع لغير الله تعالى، وبما يدل على ذلك من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَْبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ (البقرة: ١٤٨) .

- ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾

(آل عمران : ١٠٤) .

- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ (النحل : ٩٠) .

- ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد: ٢٥) .

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة: ٨) .

إلى آيات كثيرة أخرى . وقد سلك المسلمون كل سبيل إلى نشر هذه الرسالة، وإبلاغها إلى الناس في مشارق الأرض ومغاربها، ويهمنا - في هذه الدراسة - أن نشير إلى وسيلتين، يمكن عدهما أهم الوسائل في نشر الإسلام، وهما القتال والدعوة إلى الله تعالى .

١- كان الجهاد واحد من الوسائل التي سلكها المسلمون لإبلاغ هذه الدعوة، وكان ذلك وسيلة من وسائل تطبيق عالمية الإسلام، كما كان متفقاً مع عقيدة ختم النبوة بمحمد ﷺ .

وقد شرع الجهاد في سبيل الله لغايات وأغراض متعددة تتعلق بالظروف التي عاشها المسلمون . كما تتعلق بالغايات التي يهدف الإسلام إلى تحقيقها . ومن أهم هذه الغايات ما نشير إليه - بإيجاز شديد - فيما يأتي :

(أ) دفع الظلم، ورفع الأذى عن المسلمين الذين تعرضوا في مكة للظلم والأذى من المشركين حتى أخرجوا من ديارهم وأموالهم إلى الحبشة أولاً، ثم إلى

يثرَبُ التي أصبح اسمها: المدينة ثانياً، وقد أذن الله لهم في مقاتلة هؤلاء المشركين ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿ (الحج: ٣٩، ٤٠) .

(ب) الدفاع عن المظلومين المضطهدين، الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، ولا يستطيعون أن يهاجروا من أرض الشرك إلى بلاد الإسلام ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (النساء: ٧٥) ويرتبط بهذا ارتباطاً وثيقاً حماية المسلمين من القهر والبغي الذي يؤدي إلى الفتنة في الدين، التي هي أشد من القتل وأكبر منه، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٣) ويقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (الأنفال: ٣٩)، ولذلك شرع الله القتال حتى ولو كان في الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال؛ لأن قتل المسلمين وفتنتهم عن الدين، وإخراجهم من ديارهم أشد إثمًا، وأعظم جرماً من القتال في الأشهر الحرم ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة: ٢١٧) .

(ج) مجاهدة الكافرين وقتالهم إذا بدأوا المسلمين بالقتال ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠) .

ويرتبط بهذا السبب ارتباطاً وثيقاً نقض المشركين وغيرهم لعهودهم التي قطعوها على أنفسهم للمؤمنين ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ (التوبة: ١٢) (١) فإذا وفوا بالعهود واستقاموا في تعاملهم مع المسلمين فإن المسلمين مكلفون بمعاملتهم بالمثل ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٧ وانظر الآية ٤ أيضاً) .

(١) اقرأ الآيات بعدها كذلك .

(د) بذل الجهد لإبلاغ كلمة الله إلى الناس، وتحقيق عالمية الرسالة، التي هي من خصائص الإسلام كما سبق القول: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٣) (١).

وبسبب هذه المهام الجليلة التي يقوم بها الجهاد في الدفاع عن الإسلام، والعمل على نشره كان للجهاد مكانة عظمي فهو « ذروة سنام الإسلام » كما وصفه الرسول ﷺ (٢) وكان القائمون به من المجاهدين والشهداء في الدرجات العلا عند الله تعالى، كما تدل على ذلك الآيات والأحاديث الكثيرة (٣).

ولقد كان الرسول يبايع الناس على الإسلام والجهاد، كما كانت الأنصار تقول يوم الخندق :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما حيننا أبداً (٤)

كما كان الصحابة يتعلمون سورة « الأنفال » التي كان يسمونها سورة « الجهاد »، وكانوا يستحضرونها في المواقف العصيبة؛ لتقوي عزائمهم وتمتلي قلوبهم بالثقة والسكينة والرجاء في نصر الله تعالى . فعندما كان المسلمون يتهيؤون لخوض معركة القادسية ضد الفرس صلى سعد بن أبي وقاص الظهر بالناس ثم دعا الغلام الذي أرسله عمر بن الخطاب رضي الله عنه إليه، وكان من قراء القرآن وحفاظه، وأمره بأن يقرأ سورة الجهاد وكان المسلمون يتعلمونها كلهم، فقرأ على الكتيبة الذين يلونه سورة « الجهاد »، فقرئت في كل كتيبة، فهشت قلوب الناس وغيونهم، وعرفوا السكينة مع قراءتها (٥).

وقد كانت تلك الروح البطولية الفدائية التي تحلى بها المسلمون سبباً في ذلك

(١) وكذا آية ٢٨ من سورة الفتح، وآية ٩ من سورة الصف، وآية ١٩٣ من البقرة، وآية ٣٩ من الأنفال .

(٢) مسند أحمد ٢٣١، ٣٢٧ .

(٣) راجع كتاب الجهاد والسير في الصحاح كالبخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة ، وهي تفيض بالأحاديث الكثيرة الدالة على تلك المكانة العظمى التي يجعلها الله تعالى للمجاهدين والشهداء، والجزاء الأوفى الذي أعده الله لهم .

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب البيعة في الحرب إلا يفروا ١٦٣/٢ .

(٥) تاريخ الطبري ٥٣٦/٣ .

الانتشار السريع الكاسح للإسلام في شرق الأرض وغربها، وقد تم ذلك على نحو مذهل تخطت فيه عروش أقوى الدول في ذلك الوقت بحيث ارتفعت راية التوحيد على كثير من بقاع الأرض المعمورة في أقل من قرن من الزمان^(١)، ويهمننا أن نوضح أن تلك الروح البطولية كانت أثراً من آثار العقيدة ونتيجة لها، وأن هذا الجهاد لم يقصد من ورائه سلب، ولا نهب، ولا تسلط، ولا علو في الأرض، ولا فساد، وأن الجهاد الإسلامي يتميز بأنه كان يرمي إلى توصيل الدعوة التحريرية العظمى التي تحملها مبادئه في توحيد الله إلى سائر الخلق، وتحرير البشر من الطغيان، وإضفاء طابع الكرامة على الإنسان، وإسقاط الحواجز التي تحول بينه وبين الدين الصحيح الذي جاء خاتماً للأديان، ووارثاً للوحي، ومهيماً عليه، ولذلك كان المجاهدون حملة هداية ورحمة تتعلق برسالة نبيهم ﷺ. وعبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك بقوله: «إن الله بعث رسوله محمداً ﷺ، هادياً، ولم يبعثه جابياً».

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ» (الأعراف: ١٥٧) ولقد نجد من بين مؤرخي الحضارات من يعترف بأثر العقيدة في جهاد المسلمين، ومن هؤلاء جوستاف لوبون الذي يقول إن للاعتقاد قوة لا يقابلها إلا قوة اعتقاد مثلاً «وكانت شدة إيمان والعرب تزيد قوتهم العددية عشرة أمثالها ...»^(٢).

فالعقيدة المستكنة في القلوب كانت هي المحرك الأعظم للجهاد والفداء والاستشهاد، ويتضح هذا الأثر للعقيدة في جوانب متعددة من أبرزها جانبان:

(أ) أن الإيمان بالآخرة، وما أعدّه الله للشهداء في الآخرة من عظيم الثواب

(١) يقول لوثروري ستودارد: «كاد يكون نشوء الإسلام النبا الأعجب الذي دون في تاريخ الإنسان. ظهر الإسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضة الكيان، وبلاذ منحطة الشأن، فلم يمس علي ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض، ممزقاً ممالك عالية الذرى، مترامية الأطراف، وهادماً أدياناً قديمة، كثر عليها الحقب والأجيال، ومغيراً ما بنفسوس الأمم والأقوام، وبانياً عالماً حديثاً متراساً الأركان، هو عالم الإسلام». حاضر العالم الإسلامي، ترجمة الأستاذ عادل نويهض، تعليق الأمير شكيب أرسلان، دار الفكر - لبنان، ط ٤ / ١٩٧٣، ج ١ / ص ١.

(٢) سر تطور الأمم ١٤٤، ١٤٥.

والكرامة قد نزع من قلوبهم خوف الموت، وحبب إليهم الشهادة، وجعلهم يتدافعون، ويتسابقون إليها، حتى لقد كان الذي لا يفوز بالشهادة يغبط من فاز بها، فعندما استشهد زيد بن الخطاب الذي كان يحمل راية المسلمين في موقعة اليمامة في قتال مسيلمة الكذاب قال عمر بن الخطاب: رحم الله زيدا، سبقني أخي إلى الحسينين: أسلم قبلي، واستشهد قبلي^(١)، وكان من لم يدرك الشهادة منهم يتحسر على حرمانه منها. وكان من هؤلاء خالد بن الوليد الذي قال عندما حضرته الوفاة: «لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في بدني موضع إلا وفيه ضربة، أو طعنة، أو رمية، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء ..»^(٢).

ولقد كانوا ينظرون إلى الشهادة على أنها منحة آلهية لا ينالها كل أحد، فهي ترجع إلى نوع من الاصطفاء الإلهي الذي يختار الله تعالى له من يشاء، كرماً منه وفضلاً ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ (آل عمران: ١٤٠)^(٣).

ولكن الصحابة كانوا يبذلون ما في وسعهم من الأسباب ليفوزوا بهذا الاصطفاء، وكان بعضهم يُعرض عن المغام - عند النصر - طلباً للشهادة، وعندما غنم الرسول المغام من خيبر قسم لأحد الصحابة قسماً فقال الرجل لمن حمل إليه نصيبه: ما هذا؟ قالوا قسم قسمه لك رسول الله ﷺ، فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكنني اتبعتك على أن أرمى هنا - وأشار إلى حلقه - بسهم فأموت فأدخل الجنة، فقال: إن تصدق الله يصدقك. فدخل المعركة وقتل، فقال الرسول: صدق الله فصدقته^(٤) ولم تكن المسارعة إلى الجهاد والاستشهاد وقفاً على الكبار من الرجال، بل إن الشباب كانوا يسارعون إلى ميادين الجهاد؛ لينالوا شرف البطولة، وكرامة

(١) اسد الغابة لابن الأثير ٢/ ٢٨٦.

(٢) السابق ١١١/ ٢.

(٣) يقول ابن هشام في تفسيرها: وليكرم من أكرم من أهل الإيمان بالشهادة، انظر: سيرة ابن هشام ٢/ ١١١٠.

(٤) البداية والنهاية ٤/ ١٩٣.

التضحية، والبذل في سبيل الله، والفداء لرسوله ﷺ (١) وإن أحدهم ليرغب في الجهاد ويحرص عليه مع أنه لا يطيق حمل السلاح، وأن أحدهم ليرد عن الجهاد بسبب صغره فيبكي فيؤذن له، وأن أحدهم ليتوارى عن الرسول حتى لا يرده؛ لصغر سنه، مع أنه يبتغي الشهادة، فيرزقه الله أياها وهو ابن ست عشرة سنة (٢).

كذلك طالبت النساء بنصيبهن منه، فبين لهن الرسول ﷺ أن طاعة الزوج والقيام بحقه تعدل ذلك، ولكنهن لم يقنعن بذلك، بل كن يشتركن في بعض الغزوات، ويقمن ببعض الواجبات التي يستطعنها كعلاج المرضى، وصنع الطعام، وحمل الماء إلى المقاتلين، ومناولتهم السلاح، بل شارك بعضهن في القتال الفعلي في أشد المواقع حرجاً مثلما قاتلت نسيبة بنت كعب دفاعاً عن الرسول ﷺ في غزوة أحد بعدما انهزم المسلمون، وفي ذلك تقول: «فلما انهزم المسلمون، انحزت إلى رسول الله ﷺ فقممت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمي عنه القوس حتى خلصت الجراح إلى» (٣). بل إن إحداهن - وهي أسماء بنت يزيد - قتلت تسعة يوم اليرموك (٤).

وهكذا كان للعقيدة هذا الأثر الحاسم في غرس تلك الروح البطولية الفذة التي وصفها خالد بن الوليد رضي الله عنه في دعوته أهل فارس إلى الإسلام بأنهم قوم «يحبون القتال في سبيل الله كما تحب فارس الخمر، وأنهم قوم يحبون الموت كما يحب أعداؤهم الحياة» (٥) وقد وصفهم بذلك أعداؤهم حين وصفوا الصحابة بأن كل واحد منهم يحب أن يموت قبل صاحبه، أما أعداؤهم فإن كل واحد منهم يود أن يموت صاحبه قبله (٦).

(١) انظر ما رواه البخاري عن عبد الرحمن بن عوف فيما حكاه عن غلامين من الأنصار، سأل كل منهما عن أبي جهل حيث عزم كل منهما على قتله، لأنه بلغهما أنه كان يسب الرسول الله، فلما رآه دلهما عليه، فاشتركا في قتله، صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير، باب من لم يخمس الأسلاب ١٩٧/٢ طبعة الحلبي.

(٢) انظر كنز العمال ٢٧٠/٥ وحياة الصحابة للشيخ محمد بن يوسف الكاندهلوي، طبعة دار القلم، دمشق ط ١٩٨٣/٢ ج ٥٩٩/١.

(٣) سيرة ابن هشام ٨٢/٢، ٨١.

(٤) انظر في خروج النساء للجهاد مع المجاهدين: حياة الصحابة ١/٥٩٠-٥٩٨.

(٥) انظر: تاريخ الطبري ٣/٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٨.

(٦) انظر: حياة الصحابة ٣/٩٦٣.

(ب) أن تمكن الإيمان من قلوب الصحابة كان يجعلهم ذوي يقين لا يتزعزع بأن ما وعدهم به الله تعالى ورسوله من النصر، وفتح البلاد، وانتشار الإسلام واقع لا محالة؛ لأن وعد الله لا يتخلف؛ ولأن رسوله لا ينطق عن الهوى. ولقد كان وعد الرسول لهم - بذلك - يأتي أحياناً في ظروف محنة وشدة كما حدث في غزوة الخندق التي بشرهم الرسول فيها بفتح البلاد في المشرق والمغرب^(١)، واستهزأ المتنافقون بهذه البشارات النبوية، ولكن الصحابة رضي الله عنهم كانوا ذوي يقين، وتسليم بضرورة تحقيق وعد الله تعالى لهم **﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾** (الأحزاب: ٢٢).

وقد رأى الصحابة بأنفسهم تحقق بعض هذه البشارات، فكان ذلك زيادة ليقينهم، وتثبيتاً لإيمانهم بصدق ما وعدهم به. ومن هؤلاء عدي بن حاتم الذي تحدث عن دعوة الرسول له إلى الإسلام ونصحه له بالألأ يصدّه عن الإيمان ما يراه من ضعف المسلمين، وكان مما قاله له: أما أني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام. تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب (ثم يقول له الرسول ﷺ): أتعرف الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد سمعت بها^(٢) قال (الرسول ﷺ): فو الذي نفسي بيده ليطمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة (المرأة) من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز بن هرمز، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: نعم! كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقلبه أحد. قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها^(٣).

وقد كان بعض الصحابة - ثقةً منهم بتحقيق وعد الله - يطلب إلى الرسول ﷺ

(١) سيرة ابن هشام ٦١٩/٢، وانظر تفسير ابن كثير طبعة الشعب في تفسيره للآية ٣٣ من سورة التوبة ٧٩، ٧٨/٤.

(٢) الحيرة بلد بجانب الكوفة، ومحلة معروفة بنيسابور. انظر: لسان العرب، مادة: حير، ولم تكن الحيرة قد فتحت بعد.

(٣) تفسير ابن كثير ٧٩ / ٤.

أن يقسم له نصيباً من بلاد لم يتم فتحها بعد، ومن هؤلاء تميم الداري الذي قال للرسول: «إن الله مظهرك على الأرض كلها فهب لي قريتي من بيت لحم في فلسطين، (ولم تكن قد فتحت بعد) فوهبه الرسول ﷺ إياها، وكتب له بذلك، فلما فتحت جاء بالكتاب إلي عمر فأقطعه إياها^(١) - ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤٩). وكان هذا اليقين يملأ قلوبهم شجاعة، وجراً وإقداماً، ويمدهم بقوة معنوية غالبة كانت تمكنهم من مواجهة الدول العظمى التي كانت تحيط بهم دون خوف ولا تردد، ولم تكن هذه الجرأة على من حولهم إلا أثراً من آثار العقيدة التي آمنوا بها، فلم يكن للعرب بين هذه الدول شأن ولا مكانة، ولم يكونوا موضع رغبة ولا رهبة؛ بسبب ما كانوا عليه من الضعف والتفرق والعصبية القبلية الجاهلية، وبسبب ما كانت عليه بلادهم من فقر في الموارد وقلة في الخيرات، وعندما دخل العرب في الإسلام وأسلموا لله نفوسهم، وطلبوا الجنة وحرصوا على الشهادة، لم يكونوا قد ازدادوا عدداً، ولا عُدّةً ولا إمكانات مادية، ولكنهم كانوا قد تزودوا بمدد لا يقهر، وزاد لا ينفد من التضحية والفداء، والثقة بالله، والتوكل عليه، والرجاء في نصره وتحقيق وعده، ولذلك انقلبت الموازين، وأصبح الضعفاء الفقراء يمشون على بساط الملوك في قوة وجرأة، ويُنذرونهم بالهزيمة وانتهاء الملك على نحو يثير الدهشة والاستغراب، بل يثير - عند غير المؤمنين - العجب والاستنكار. وعندما بعث سعد بن أبي وقاص إلى رستم قائد الفرس عدداً من سادات الصحابة ليدعوه قبل القتال إلى الدخول في الإسلام - وقد كان هذا مبدءاً علمهم إياه الرسول ﷺ، كما فعل مع علي بن أبي طالب في يوم خيبر^(٢) - قال لهم رستم: «ما أقدمكم؟ فقالوا: جئنا لموعد الله إيانا: أخذ بلادكم، وسبي نساءكم وأبنائكم وأخذ أموالكم، فنحن على يقين من ذلك»^(٣).

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٢ / ١٨٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنيرة ٢ / ١٦١.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٧ / ٤٠، ٤١.

وفي مرة أخرى دخل عليه ربيعي بن عامر بثياب متواضعة، وسيف وترس، وفرس قصيرة ظل يمشي بها إلى أن داس على طرف بساطه، ثم نزل وربطها ببعض الوسائد، ثم أقبل عليه يحمل سلاحه، فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتوني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فقال رستم: ائذنوا له... فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال قولاً يدل على وعيه العميق بتلك الغاية التحريرية العظمى التي هي هدف من أهداف الجهاد في الإسلام، قال ربيعي: الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام... فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه... ومن أبى قاتلناه أبداً، حتى نفضي إلى موعود الله، قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقى»^(١).

وطلب رستم مهلة طويلة للمشاورة، ثم ذهب إليه المغيرة بن شعبة ليعرف ما انتهى إليه أمره، فحاول أن يغريه ببعض متاع الدنيا، لقاء انصرافهم عن الحرب، فقال له المغيرة: «أبعد أن أوهناً مملكتكم، وضعفنا عزكم... وستصيرون لنا عبداً على رغمتكم»^(٢) ولم يكن هناك مفر من اللقاء، ولم يكن لدى أهل الإيمان شك في عاقبته، وإن كثرت فيه التضحيات، وكانت العاقبة هي النصر المبين للمؤمنين. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

وهكذا كان الجهاد من أقوى عوامل القوة للأمة الإسلامية، وكان سلاحاً من أمضى أسلحتها، وظل يحملها - بفضل الله وعونه - من نصر إلى نصر، ومن فتح إلى فتح، إلى أن دانت لهم البلاد شرقاً وغرباً، ورفرفت راية الإسلام خفاقة في العالمين.

٢- على أن من المهم الإشارة - هنا - إلى أن تلك المكانة الكبرى التي جعلها الإسلام للجهاد لم تكن تعني أن الجهاد هو الوسيلة الوحيدة لنشر الإسلام، أو إبلاغه إلى الناس، كما أنها لا تعني أن الجهاد كان وسيلة لإكراه الناس على الدخول

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٢٠ .

(٢) البداية والنهاية ٧ / ٤١، ٤٠ .

في الإسلام، أو قهرهم على اعتناقه، كما يدعى ذلك بعض الدارسين للإسلام من المستشرقين أو من غيرهم.

فلقد كانت الدعوة إلى الإسلام بالكلمة هي الوسيلة الأولى التي بدأت بها هذه الدعوة، وقد جمع الرسول ﷺ الناس - منذ بدء رسالته في مكة - وخطبهم، ودعاهم إلى الله، وذهب إليهم في مجالسهم ومواطن اجتماعهم، وخرج إلى الطائف داعياً، والتقي بالقاديين من المدينة. وكان سلاحه الوحيد في هذا كله، وطوال الفترة المكية، وفي أوائل عهده بالمدينة هي: كلمة الحق التي أمره الله تعالى أن يصدع بها. وقد كتب بها إلى الملوك والحكام في عصره كقيصر، وكسرى، والمقوقس، والنجاشي، وغيرهم.

وقد انتشر الإسلام في المدينة المنورة التي هي قاعدة الإسلام، والعاصمة الأولى له عن طريق الدعوة التي حملها إليها مصعب بن عمير، وبعض معاونيه، وفي ذلك يقول ابن قيم الجوزية إن مدينة النبي ﷺ إنما فتحت بالقرآن، ولم تفتح بالسيف^(١) وكذلك فتحت اليمن في عهده ﷺ ودخلها الإسلام صلحاً، لا حرباً^(٢).

وعندما ذهب الرسول إلى المدينة ووجد بها، ومن حولها طوائف من اليهود لم يكرههم على الإسلام، بل عقد معهم معاهدة المدينة التي جاء في نصوصها ما يؤكد حرية هؤلاء في البقاء على ما هم عليه من دين، دون منازعة لهم فيما يعتقدون، أو إجبار لهم على تركه^(٣)، وقد جاء نصارى نجران إلى المدينة؛ لمجادلة الرسول ﷺ فيما خالفهم فيه الإسلام من أصول عقائدهم، فأذن لهم الرسول أن يقيموا بمسجده، كما أذن لهم أن يؤدوا صلواتهم فيه، ثم جادلهم بالبرهان الناصع والحجة البينة، كما تدل على ذلك الآيات من أوائل سورة آل عمران (الآية ٥٨ وما بعدها) وانتهى أمر المجادلة إلى أن يقبل منهم الرسول ﷺ البقاء على دينهم، مع

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد، المطبعة المصرية ومكتبتها، دون تاريخ ج ٤٨/١.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٢ / ٦٥٥، ٦٥٦، والبداية والنهاية ٤ / ٢٦٧، ٢٦٨.

(٣) انظر: البداية والنهاية ٣ / ٣٢٣، ٣٢٤.

إرساله أحد أصحابه ليكون حكماً فيما بينهم بناء على طلبهم^(١).

وتدلنا هذه الشواهد الكثيرة على سماحة الإسلام في نظرته إلى الآخرين ممن لم يؤمنوا به، ويتأكد هذا الموقف بعدد من المبادئ والأصول الهامة، ومن بينها:

أ- أن من أصول الإسلام أنه لا إكراه في الدين، وقد تقرر هذا الأصل في آية قرآنية يقول الله تعالى فيها: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)^(٢)، وهذا النص عام محكم ليس بمنسوخ ولا مخصص، فلا حاجة للإكراه على الدين بعد أن ظهرت الدلائل، ووضحت البيّنات، وهذا ما قاله المفسرون المحققون كالطبري، والرازي، وابن كثير، وأبي حيان، وأمثالهم. وقد عبر ابن تيمية عن ذلك قائلاً: «جمهور السلف على أن الآية ليست بمنسوخة، ولا مخصصة، وإنما النص عام، فلا نكره أحداً على الدين... ولا يقدر أحد قط أن ينقل أن رسول الله ﷺ أكره أحداً على الإسلام، لا ممتنعاً ولا مقدوراً عليه، ولا فائدة من إسلام مثل هذا، لكن من أسلم قبل منه ظاهر الإسلام» ثم أضاف ابن تيمية: «أنه من الثابت المقرر أن النبي ﷺ قد أسر من المشركين، فمنهم من فداه، ومنهم من أطلق سراحه، ولم يكره أحداً على الإسلام... والقرآن خير المسلمين - حين يشخون في الأعداء - بين المن على الأسرى أو الفداء»^(٣).

ولا إكراه - إذن - في الدين، وهذا ما يؤكد بعض الباحثين المنصفين من غير المسلمين الذين يشهدون بأنه لا يوجد في تاريخ المسلمين إكراه على الدين، بل إن التسامح هو الطابع العام لعلاقة المسلمين بغيرهم. ويستدل هؤلاء بأن وجود كثيرين جداً من الفرق والجماعات المسيحية وغيرها في الأقطار التي ظلت قروناً في ظل الحكم الإسلامي لدليل ثابت على ذلك التسامح الذي نعم به هؤلاء^(٤).

(١) انظر: سيرة ابن هشام ١ / ٥٧٣-٥٨٤.

(٢) وانظر كذلك الآية ٩٩ من سورة يونس، والآيتين ٣، ٤ من سورة الشعراء، إلى آيات أخرى.

(٣) انظر لهذه الفكرة: د/ وهبة الزحيلي: العلاقات الدولية في الإسلام، مقارنة بالقانون الدولي الحديث، مؤسسة الرسالة، بيروت ط ١ / ١٩٨١ ص ١٤، ١٥ والمصادر المذكورة بهما.

(٤) انظر: الدعوة إلى الإسلام، سير توماس ارنولد، ترجمة د/ حسين إبراهيم حسن وآخرين، مكتبة النهضة المصرية ط ٣ / ١٩٧٠ ص ٤٦١، ٤٦٢ وما بعدهما.

* يؤمن الإسلام بعالمية رسالته، ولكنه بيّن في القرآن الكريم أنه سيكون من الناس من لا يستجيب لدعوته، وسيتسع العالم لمن يؤمنون بديانات أخرى، بل سيتسع لمن لا يؤمنون بدين أصلاً، ومما يدل على ذلك قوله الله تعالى: ﴿وَأِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (الأنعام: ١١٦)، وقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف: ١٠٣).

وقد دعا الإسلام أتباع الأديان السابقة إلى الدخول فيه، ولكنه لم يكرههم على ذلك، بل إنه جعل في تشريعه ما يتناسب مع استمرارهم على دياناتهم، وكان من تشريعه للمسلمين في علاقتهم بأهل الكتاب أنه أحل أكل طعامهم، وأباح للمسلمين أن يتزوجوا منهم (انظر الآية الخامسة من سورة المائدة) وحرّم العدوان عليهم، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله لم يرح رائحة الجنة، وريحها من مسيرة سبعين عاماً^(١) وقد نهى الإسلام عن جدالهم إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم (انظر: العنكبوت: ٤٦) كما دعاهم إلى كلمة سواء يتفقون فيها مع المسلمين على أصول العقائد التي جاء بها الأنبياء، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

بل إنه دعا إلى برهم والإقساط إليهم، إذا لم يحاربوا المسلمين ولم يفتنوه عن دينهم ولم يخرجوهم من ديارهم (انظر: الممتحنة: ٨، ٩).

* وإذا كان الإسلام قد شرع الجهاد بوصفه وسيلة من وسائل نشر الدعوة، وإبلاغها إلى الناس فقد ظل للدعوة بالكلمة والتعريف والإعلام دورها الفاعل قبل تشريع الجهاد، وأثناءه، وبعده، بل كان من آداب تشريع الجهاد أن يبدأ المسلمون بعرض الإسلام على خصومهم من المحاربين قبل بدء القتال، وقد كان من هدى الرسول ﷺ أنه كان - إذا بعث أميراً على سرية أو جيش - يوصيه بتقوى الله في

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الديات، باب من قتل معاهداً ٨٩٦/٢، في الباب، احاديث أخرى، وفي الباب الذي بعده، وارجع إلى مسند أحمد ١٨٦/٢، ٢٣٧/٤، ٣٦٩/٥ و ٤٧٤ ..

خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين خيراً ثم يقول: «إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال.. فأيتها أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم: أدعهم إلى الإسلام. فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم...»^(١) وهكذا يظل للكلمة دورها الفاعل، في نشر الإسلام؛ لما لها من قدرة على مخاطبة العقل وإقناعه، ودفع ما قد يترأى له من شبهات، ويعبر ابن حزم عن ذلك تعبير قويا فيما ذكره من أن الحجة الصحيحة أقوى في مواجهة الأعداء من السلاح الشاكي والأعداء الكثيرة، «وقد تهزم العساكر الكبار، والحجة الصحيحة لا تغلب أبداً؛ فهي أدعى إلى الحق وأنصر للدين من السلاح الشاكي، والأعداد الجمة»^(٢).

وبهذا تتكامل وسائل نشر الدعوة، فالكلمة في موضعها، والجهاد في موضعه، وهو - في الإسلام - مقرون بآداب ووصايا وتشريعات إنسانية وأخلاقية ليس لها نظير. وقد كان من وصايا رسول الله ﷺ للمجاهدين: اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، اغزوا ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً.

وقوله: «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً ولا صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائكم، وأصلحوا وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين»^(٣).

* وينبغي أن نشير - بإيجاز - إلى مسألة بالغة الأهمية، لا يصح أن نغفل عنها في أي حديث عن الجهاد في الإسلام، وتتعلق هذه المسألة بأن هناك فرقاً في المعنى بين القتال والجهاد، وأنهما لا بتطابقان تطابقاً تاماً كما يبدو للوهلة الأولى، وقد ظهر هذا الفرق بينهما في المعاجم اللغوية، ومعاجم المفردات القرآنية، ثم ظهر في كتب التفسير أثناء حديثها عن بعض الآيات القرآنية التي وردت فيها لفظتا الجهاد

(١) سنن أبي داود، مطبعة الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين ٣٧/٣ وانظر وصية الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب عليه السلام في غزوة خيبر، في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر ٦٧/٥، ٧٧.

(٢) ابن حزم: الأحكام في أصول الأحكام، نشرة د/ إحسان عباس، دار الآفاق الجديدة، بيروت طبعة ١٩٨٣ مجلد ١ ج ١ ص ٢٥.

(٣) سنن أبي داود، في الموضوع السابق ٣٧/٣، ٣٨.

والقتال وما يشتق منهما، وقد أُيدت هذه التفسيرات ببعض الأحاديث النبوية التي أوردتها بعض كتب السنة، واستشهد بها بعض المفسرين.

وقد ذكر علماء اللغة أن القتل معروف، وهو إزهاق الروح بسبب يؤدي إلى القتل كالضرب ونحوه مما يؤدي إلى الموت^(١)، وعلى هذا فالقتال هو الصراع الذي يقع بين المتقاتلين، أو قد يقع بين المؤمنين وخصومهم، وقد يقع ذلك بين المؤمنين بعضهم وبعض، وفي مثل هذه الحالة الأخيرة يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: ٩).

أما الجهاد فهو يدل في أصل مادته اللغوية - على بذل الجهد وتحمل المشقة، ومنه الاجتهاد والتجاهد وهما يدلان على بذل الوسع والمجهود، والجهاد محاربة الأعداء، بكل ما يملكه المجاهدون من وسع، ويكون بالقول والفعل، ويكون بالسلاح واللسان وبكل ما أطاق المجاهدون من شيء^(٢).

ومعنى ذلك أن الجهاد ليس محصوراً في مقاتلة الأعداء بالسلاح الذي يؤدي إلى القتل، ولكنه يكون جهاداً بكل الوسائل الممكنة التي يتطلبها الصراع بين الأطراف المتنازعة، ويمكن التعبير عن ذلك - بحسب التعبيرات الحديثة - بأنه يدخل فيه الجهاد الاقتصادي والعلمي والدبلوماسي والحروب الدعائية والنفسية، ونحو ذلك من الوسائل التي يمكن استخدامها لتحقيق الأهداف المرجوة من الصراع بين المتحاربين.

ثم اتسع مفهوم الجهاد ليشمل مجالات أخرى، وظهر ذلك لدى الراغب الأصبهاني عندما قسّم الجهاد إلى ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس^(٣)، ويستند هذا المفهوم إلى بعض الأحاديث النبوية

(١) انظر: لسان العرب، مادة: قتل.

(٢) السابق مادة جهاد.

(٣) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، بعناية أ. د / محمد أحمد خلف الله، الانجلو المصرية، ١٩٧٠ ص ١٤٢.

التي لا تقصر الجهاد على لقاء الأعداء المحاربين، بل تمتد به إلى مجالات وميادين أخرى، ذات طبيعة تعبدية، أو اجتماعية أو نفسية، ومن ذلك قوله ﷺ للشباب الذي جاء إليه راغباً في القتال، فقال له الرسول ﷺ: «أحيى والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد»^(١)، وقد وصف الرسول ﷺ الحج بأنه جهاد، أو بأنه جهاد كل ضعيف^(٢)، ثم جاء في كلام النبي ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في الله»^(٣)، وجهاد النفس يعني مجاهدة شهواتها وهواها، ونزوعها إلى الشر، وفتورها عن الطاعة، وهو مجاهدة أخلاقية، وتهذيب روحي يراد به ترويض نوازعها، وتهذيب غرائزها، حتى يترسخ فيها الإيمان والاستقامة على الحق والهدى، وهذا كله باب غير القتال والصراع الذي يجري في ساحات الحروب بين المتنازعين.

وعلى هدي من هذه الأحاديث جاءت أقوال المفسرين لبعض الآيات القرآنية، ومنها قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ (الحج: ٧٨)، وقد كان مما فُسِّرَتْ به هذه الآية - إضافة إلى الجهاد الأكبر - الذي هو جهاد الأعداء "امتثال ما أمرهم الله تعالى به في الآية المتقدمة وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الحج: ٧٧)، أو هو امتثال جميع ما أمر به ونهى عنه على العموم، وقيل: المراد به: استفرغ ما في وسعهم في إحياء دين الله»^(٤).

ويجري على هذا المنوال ما ذكره بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩)، وقد

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب الجهاد بإذن الأبوين ٤ / ١٨ (استانبول)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنها أحق به. صحيح مسلم بشرح النووي ٥ / ٤١١، ومسند أحمد ٢ / ١٦٥، ١٧٣.

(٢) سنن ابن ماجه، طبعة الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب المناسك باب الحج جهاد النساء، برقم ٢٩٠٢، وباب العمرة برقم ٢٩٨٩.

(٣) مسند أحمد ٦ / ٢٠، ٢٢.

(٤) انظر: فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، عالم الكتب - لبنان، ٣ / ٤٧٠.

انتبه السُّدِّي وغيره إلى أن هذه الآية قد نزلت قبل فرض القتال، وقال ابن عطية: فهي قبل الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته، وقال الحسن البصري: إن الآية في العُبَاد، وقال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين والرد على المبتلين وقمع الظالمين، وَعَظْمُهُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر^(١).

وكذلك كان الأمر في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٢)، وفي تفسيرها يقول الشوكاني إن الضمير في: به «راجع إلى القرآن، أي جاهدكم بالقرآن، وأتل عليهم ما فيه من القوارع والزواجر والأوامر والنواهي. وقيل: الضمير يرجع إلى الإسلام، وقيل: بالسيف، والأول أولى، وهذه السورة مكية، والأمر بالقتال إنما كان بعد الهجرة»^(٢).

وليس الجهاد بحسب هذه الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية مقصوراً على قتال الأعداء، بل هو جهاد شامل يتسع لكل أوامر الدين ونواحيه، كما يتسع لكل جانب من جوانب الحياة، فطلب العلم جهاد، وامتلاك القوة بمعناها الشامل جهاد، والارتقاء بالنفس وأخلاقيها جهاد، وإقامة الحياة الفردية والاجتماعية على النحو الذي يحبه الله ويرضاه جهاد، والقيام بحق أصحاب الحقوق - وفي مقدمتهم: الآباء والأمهات - جهاد، وهكذا وهكذا.

والجهاد - إذن - يمتد ليشمل كل جانب من جوانب الحياة، وهو - بهذا الفهم - يقوم بوظيفته المهمة في النهوض بالأمة، وتحقيق سيادتها وكرامتها، فإذا ما واجهها أحد بعدوان فإنها مكلفة بالجهاد - بمعناه الخاص - الذي يسعى إلى رد العدوان ومقاومة المعتدين.

(١) انظر: الجامع لاحكام القرآن لابي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، طبعة دار الشعب ص ٥٠٨٠، ٥٠٨١.

(٢) فتح القدير ٤ / ٨١، وانظر مثل هذا الرأي - من قبل - لدى القرطبي في كتابه الجامع لاحكام القرآن ٤٧٧٤.

وليس الجهاد - إذن - تخريباً ولا ظلماً ولا عدواناً كما يدعى ذلك بعض الباحثين من غير المنصفين، في القديم وفي الحديث، وهذا ما سنتعرض له في الفقرة التالية.

٣- بيئاً فيما سبق أن الجهاد لنشر الدين الإسلامي بين الأمم كان من أقوى الدعائم التي قامت عليها الدولة الإسلامية، وقد كان الجهاد تطبيقاً لعالمية الإسلام وكونه الدين الخاتم الذي لا يأتي بعده دين، وقد انطلق المسلمون في سائر أرجاء الأرض لأداء تلك المهمة المقدسة. وامتلات حياتهم بتلك الروح القوية والثابة، التي تغلغلت في قلوبهم: رجالاً ونساء، شيباً وشباناً على النحو الذي أوضحناه من قبل.

ولكن تلك الروح قد أصيبت بالضعف والوهن الذي حذر الرسول ﷺ المسلمين منه في قوله « يوشك أن تداعى الأمم عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: أو من قلة نحن - يومئذ - قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»^(١) وقد كان هذا الضعف ثمرة لعوامل كثيرة: نفسية وتربوية، اقتصادية واجتماعية، وسياسية وعسكرية، مذهبية وفلسفية، ويمكن أن نشير إلى بعض هذه العوامل فيما يأتي:

(١) كانت الحياة قد انتقلت مما كانت عليه - في أول الإسلام - من بساطة في العيش، وزهد في مظاهر النعيم، وصلابة أمام الشهوات، مع ما فتح الله على المسلمين من النعمة، والغنى، واتساع الخيرات - انتقلت الحياة إلى حياة مترفة تنعمت بها طوائف كثيرة في ظل عدد من الدول، وبخاصة الدولة العباسية التي اتسعت رقعتها، وكثرت أموالها، ثم تسللت إليها تقاليد الحياة الفارسية التي كانت تتفنن في تحقيق أنواع من المتعة والبهجة لم يكن للناس بها عهد. وكان كثير من الناس، وخاصة من يتولون أمور الوظائف الكبرى ينعمون بملكيات

(١) سنن أبي داود: كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام ١١١/٤ و مسند أحمد مع اختلاف يسير في اللفظ ٢٧٨/٥ .

فأحشة تثير الدهشة والعجب، بل تفوق التصور في بعض الأحيان^(١)، وكان الإنفاق الفاحش الذي لا يصدر إلا عن إسراف وسفه نتيجة طبيعية لهذه الملكيات الضخمة^(٢).

ومن شأن هذه الحياة المنعمة المترفة - إذا لم تصاحبها عقيدة قوية، وتربية صحيحة سليمة - أن تؤدي إلى أن تضعف روح الصبر، والتضحية، وقوة التحمل والصلابة التي يحتاج إليها الجهاد، ثم يؤدي ذلك الترف والنعيم إلى الحرص عليه، والاستمسك به، والانشغال باستدامته، والتزود منه، ويترتب على ذلك ضعف الجهاد وانحساره.

(ب) تغيرت فلسفة الحشد والتعبئة التي كانت تخضع لها الجيوش، فقد كان الأمويون ينظرون إلى الحدود على أنها مراكز انطلاق إلى ما وراءها من البلاد، ولكن هذه النظرة تغيرت في عهد الدولة العباسية؛ فأصبحت حدود الدولة نهايات يتوقفون عندها، وقد حاولوا تحصينها، وإمدادها بوسائل القوة، ولكن الحرب - عندئذ - كانت نوعاً من الحرب الموسمية، فيما سمي - آنذاك - باسم الصوائف والشواتي^(٣)، وكانت في بعض الأحيان نوعاً من الدفاع الذي كان ينكسر في أحيان كثيرة، ويترتب عليه ضياع أجزاء من أراضي الدولة الإسلامية لحساب خصومها وأعدائها^(٤) وقد ترتب على تلك النظرية في الحشد والتعبئة، أن الجيوش الكبرى كانت تتركز في عاصمة الدولة، وكان تحريكها إلى مناطق الحدود - عند الخطر - يقتضي وقتاً طويلاً، ونفقات باهظة، كما أن بقاءها في العاصمة والمدن الهامة كان يفقدها المرونة وروح القتال، ويصيبها بالضعف والاسترخاء، ويشغلها بالصراعات الداخلية.

(١) انظر مثلاً: البداية والنهاية ١١/ ١٢٧، ١٢٨، ١٥٩، ١٧٥، ٢٨٢، ٣٢٢، ٣٢٣.

(٢) انظر: السابق ١١/ ١٢٢، ١٦٩، ٢٣٧، ٢٨٠، ٣١٢.

(٣) انظر: مقالة فرانثيسكو جابر بيلي، الإسلام في عالم البحر المتوسط: ضمن تراث الإسلام، سلسلة علم المعرفة - الكويت - ط ٢ / ١٩٨٨ ج ١ / ١١١.

(٤) انظر: الكامل لابن الأثير، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٦، ج ٨ / ٥٣٨ وما بعدها ٦٠٤، ٦٠٥ البداية والنهاية ١١/ ٢٣١ وما بعدها.

(ج) واجه العالم الإسلامي ظروفًا داخلية عصيبة كانت تؤدي إلى إضعافه، ومن أول هذه الظروف ظاهرة الانقسام والتفتت التي أحاطت بالعالم الإسلامي - منذ وقت بعيد - ويصور ابن الأثير هذه الظاهرة تصويراً مجسماً حين يذكر في أحداث سنة ٣٢٤ هـ أنه قد «بطلت الدواوين وتغلب أصحاب الأطراف، وزالت عنهم الطاعة، ولم يبق غير بغداد وأعمالها . . . وأما في الأطراف فكانت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدي، وفارس في يد عماد الدولة ابن بويه، وكرمان في يد أبي علي بن إلياس، والري وأصبهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه، ويد وشكمير أخى مرداويج يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، والمغرب وأفريقية في يد أبي القائم بأمر الله العلوي . . . والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصرى الأموي، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي»^(١) وليس من قبيل الاستطراد الحديث عما أصبح يعانيه العالم العربي والإسلامي في العصر الحديث من تقسيم وتجزئة، وقد كان للقضاء على الدولة العثمانية (١٩٢٤) - بتأثير القوى الاستعمارية الأوروبية، والمؤامرات اليهودية - أكبر الأثر في هذا الوضع، حيث قامت بريطانيا وفرنسا خاصة باستعمار أكثر بلاد العالم العربي بعد معاهدة سايكس / بيكو وإعلان وعد بلفور الذي يمثل حجر الأساس في إنشاء وطن قومي لليهود على أرض فلسطين (١٩١٧م)، وقد وصل الأمر بالدول العربية والإسلامية إلى محاربة بعضها بعضاً. ومن شأن هذا كله أن يضعف من قوى الأمة، وأن يجعلها نهياً للطامعين في أرضها وثرواتها بالاحتلال المباشر، أو بالهيمنة السياسية والعسكرية، التي تلقى بها في هاوية التبعية والهوان.

وإذا كانت بغداد قد بقيت تحت سلطان خلفاء بني العباس، فإنهم لم يكونوا أصحاب نفوذ، أو سلطة فيها، وإنما كانت السلطة الحقيقية بها في أيدي المتسلطين

(١) الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٢٣، ٣٢٤، ويقتبس ابن كثير هذا النص في البداية والنهاية ٨٤/ ١١.

من أترك وبويهيين، وقد قتل بعضهم كالمقتدر بالله، وخلع بعضهم، وصحب الخلع مظاهر من الإهانة البالغة كالسجن وإذهاب البصر، وكان بعضهم يضطر إلى التسول، أو بيع ثيابه كما وقع للمطيع بالله، والقاهر، والمتقي، والمستكفي^(١).

وشهدت الحياة الاجتماعية والدينية ألواناً من الصراع العرقي الذي برزت فيه العصبية التي سعي الإسلام إلى إخمادها كالصراع بين القيسية واليمانية^(٢) والصراع بين البويهيين والأتراك^(٣) والصراع الديني بين السنة والشيعة، وقد كان يأخذ شكل المناظرات أحياناً، ولكنه كان يتحول في أحيان كثيرة إلى صراع دموي تزهق فيه الأرواح، وتنهب الأموال والبيوت^(٤) كما شهدت الحياة السياسية أنواعاً من الصراع السياسي بين أمراء الجند وقوادهم، وبين الخلفاء كانت تنتهي بقتل الخلفاء أحياناً^(٥)، وكانت الصراعات تقع أحياناً بين الخلفاء وأمراء الأقاليم، كالصراع الذي جرى بين يعقوب بن الليث الصفار ودولة الخلافة الأموية، والصراع الذي جرى بين خمارويه بن أحمد بن طولون والي مصر، وبين دولة الخلافة العباسية، وقد حدثت فيه معارك كموقعة الطواحين بالرملة التي «كانت وقعة لم يسمع بمثلها حتى جرت الدماء كالأنهار»^(٦).

ولم تخل الحياة - زيادة على هذا البلاء كله - من فتن عارمة كفتنة الزنج التي بدأت بالبصرة ابتداء من ٢٥٥ هـ واستمرت خمس عشرة سنة، وقعت فيها معارك ضارية أدت إلى مقتل مئات الألوف من المسلمين، بل إن الذهبي يحكي قولاً بأنه قد قتل فيها من المسلمين ما يصل إلى مليون ونصف^(٧)، ومثل فتنة القرامطة التي بدأت ٢٨٦ هـ وهزمت جيوش الخلافة، وازداد بأسهم حتى دخلوا مكة يوم التروية

(١) انظر: تجارب الأمم لمسكويه، الجزء السادس، بعناية أمدرود مطبعة الكردي ١٩١٥ ص ٣٠٧، والكمال ٣٤٢/٨، ٣٢٥، ٦١٩، والبداية والنهاية ١١/١٦٨، ١٦٩، ودول الإسلام للذهبي ١/٢٠٥، ٢٠٧، ٢١١.

(٢) دول الإسلام ١/١١٤، ١١٥.

(٣) انظر: تجارب الأمم ٦/٣٠٥، ٣٠٦، والكمال ٩/٤٩، ٦٣، ٦٤، ١١٢، ١١٤.

(٤) انظر: الكامل ٨/٥٤٢، ٥٤٢.

(٥) انظر: دول الإسلام ١/١٥١.

(٦) السابق ١/١٦٥ وقد انتهت المعركة بهزيمة جند دولة الخلافة.

(٧) السابق ١/١٥٣، ١٥٥، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤.

(الثامن من ذي الحجة) وقتلوا من الحجاج وأهل مكة ثلاثين ألفاً، ثم اقتتلوا الحاجر الأسود في عام ٣١٧ هـ، ولم يعيدوه إليها إلا بعد اثنتين وعشرين سنة (١) !!

وليس من الغريب - في ظل هذه الفتنة الداخلية المضطربة - أن يتوقف الجهاد، بل ليس من الغريب أن ينهزم المسلمون أمام الروم، سواء في ذلك جيوش الخلافة، أو جيوش بني حمدان والذين كانوا يقومون بدور بارز في محاربة الروم، وسقطت في هذه الحروب بلاد كثيرة (٢).

ولا شك أن تأمل هذه الصورة الكئيبة القائمة التي تردت إليها أحوال المسلمين طوال عصور كثيرة يصيب النفس بالأسى، ويجعل المفارقة واضحة بين ما كانوا عليه في أول عهدهم وبين ما صارت إليه أحوالهم، ولا شك أن الخلفاء كان لهم دور بالغ في تلك الظروف البائسة التي عاشها الناس، وقد حكى ابن الأثير ما وقع للمسلمين على أيدي التتار الذين كانوا يمثلون محنة من أكبر المحن التي واجهها المسلمون، وكان يتوقف بين الحين والحين؛ ليطلق الزفرات الحري على ما آلت إليه أحوال المسلمين، وكان يحمل الخلفاء والحكام الوزر الأكبر، والنصيب الأعظم، وعندما كان يورد أحداث عام ٦٢٨ هـ قال: «فأله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدين، بل كل منهم مقبل على لهوه، ولعبه، وظلم رعيته. وهذا أخوف عندي من العدو. قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَأُتَصِّينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (الأنفال: ٢٥) (٣).

وكان يذكر هذا قبل أن تسقط دولة الخلافة ببغداد ٦٥٦ هـ، وقد ذكر من أهوال الحروب وآثارها ما لا يكاد يصدق (٤).

(١) انظر: الكامل ٢٠٧/٨، ٢٠٨، ٤٨٦، والبداية والنهاية ١١/١٦٠، ١٦١، ٣٢٣، ودول الإسلام ٣١٠، ١٩٢/١.

(٢) انظر: دول الإسلام ١/٢١٤، ٢١٥، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٢.

(٣) الكامل لابن الأثير طبع مطبعة الكري، بولاق ١٢٩٠ هـ ٢٠٥/١٢.

(٤) السابق ١٤٧/١٢ وما بعدها.

وعلى حين كانت روح الإيمان والنصر تدفع جند الصحابة - رضوان الله عليهم - إلى أن يطأوا بأقدامهم مجالس الكبراء والقادة من خصومهم، ويحطموا بسلاحهم عروش الأكاسرة والقيصرة، واثقين من نصر الله لهم، معترزين بتلك العزة التي أودعها الإسلام في قلوبهم إذا بنا نرى تلك الروح المعنوية المصاحبة للهزائم والإنكسارات، والمتأثرة بها تنحدر إلى مستوى من الهوان والتخاذل والانكسار الذليل، ويصور لنا ابن الأثير مشاهد من هذه الذلة التي تظهر المفارقة - كذلك - بين حال وحال. ويذكر في أحداث سنة ٦١٨ هـ أن واحداً من بعض أهل مدينة مراغة (من أذربيجان التي كانت تقع في الاتحاد السوفيتي السابق) ذكر له أن رجلاً من التتار دخل درباً فيه مائة رجل، فمازال يقتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم، ولم يمد أحد يده إليه بسوء، «وَوُضِعَتِ الذلة على الناس، فلا يدفعون عن نفوسهم قليلاً ولا كثيراً» (١).

ثم يقول « ولقد بلغني إن إنساناً منهم أخذ رجلاً، ولم يكن مع التتار ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع رأسه على الأرض، ومضى التتار فاحضر سيفاً قتله به» (٢) بل ربما يأمر الواحد منهم الجماعة بأن يقيّد بعضهم بعضاً؛ ليقتلهم فيمتثلون لأمره» (٣)!!

(د) وصحب هذا التقهقر والهزيمة تراجع لمعنى الجهاد نفسه، ووقع ذلك على يد بعض (٤) الصوفية، الذين قسموا الجهاد إلى: جهاد أكبر، وجهاد أصغر، وقد جعلوا الجهاد الأصغر هو جهاد الأعداء ومحاربتهم، وجعلوا الجهاد الأكبر هو جهاد

(١) ١٥٦/١٢، ١٥٧، وانظر: ١٥٨/١٢.

(٢) السابق ٢٠٧/١٢.

(٣) السابق ٢٠٧/١٢.

(٤) يختص هذا الفهم ببعض الصوفية لا بجميعهم، فكثير منهم يفهم الجهاد فهماً إيجابياً يتعلق بالجهاد ضد أعداء الإسلام، وبعضهم شارك بنفسه مشاركة إيجابية في بعض المعارك الحربية، وكان بعضهم يربط بالشغور، ومن هؤلاء - على سبيل المثال - شقيق البلخي، وحاتم الأصم، وإبراهيم بن أدهم، انظر مثلاً: الرسالة القشيرية ٧٩/١، ٩٠، وهي من تحقيق د. عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف طبعة دار الكتب الحديثة ج ١/١٦٦ وقد اشترك بعضهم في الحروب الصليبية وغيرها انظر مقدمة د. عبد الحليم محمود لتحقيق كتاب: المنقذ من الضلال ٨-١٣ ط ١٩٧٢/٧ وكان بعضهم يدعو المريدين إلى الاشتراك فيها. انظر مثلاً: قوت القلوب لأبي طالب المكي ٥٠١/١.

النفس، واستندوا في هذا التقسيم إلى ما نسبوه إلى الرسول ﷺ من أنه قال حين رجع من إحدى الغزوات: « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس »^(١) واستند بعضهم إلى بعض أقوال نسبوها إلى الإمام علي بن أبي طالب في تعظيم قدر المجاهدة للنفس على ما سواها من الجهاد حتى جهاد المشركين، ومن هذه الأقوال المنسوبة إليه « وأعمال البر كلها إلى جنب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كتفلة إلى جنب البحر، وهذان إلى جنب الجهاد في سبيل الله تعالى كتفلة في جنب بحر. والجهاد في سبيل الله تعالى إلى (جنب) مجاهدة النفس عن هواها كتفلة في جنب بحر لحي »^(٢). وقد ذهب بعض الصوفية إلى تطبيق هذه الفكرة، التي أدت إلى تفضيل جهاد النفس على جهاد الأعداء تطبيقاً عملياً، ورفض المشاركة في معارك الجهاد، مع قدرته عليه، وتوفر شروطه فيه، بسبب اقتناعه بهذه الفكرة، ويقدم لنا السهروردي (٦٣٢هـ)، صاحب عوارف المعارف نموذجاً لهؤلاء، فيما حكاها من أنه قيل: إن بعض الصالحين كتب إلى أخ يستدعيه للغزو، فكتب إليه ما يدل على رفضه الاستجابة لدعوته، وقال « يا أخي كل الثغور مجتمعة لي في بيت واحد، والباب على مردود (يقصد بيت الخلوة الذي يتعبد فيه) فكتب إليه أخوه: لو كان الناس كلهم لزمو ما لزمته (من الخلوة وترك الجهاد) لا خلت أمور المسلمين، وغلب الكفار، فلا بد من الغزو والجهاد. فكتب إليه: أخي، لو لزم الناس ما أنا عليه، وقالوا في زواياهم على سجاداتهم: الله أكبر انهدم سور قسطنطينية »^(٣).

ولا شك أن الداعي منهما إلى الجهاد صاحب فهم سليم، أما هذا الجالس في

(١) يورده الغزالي على أنه حديث، وذكر الحافظ العراقي في تخريجه: أن البيهقي أخرجه في الزهد من حديث جابر وقال: في إسناده ضعف. انظر الإحياء ١٠/٣ وهامش ٢ بها وكذا ٨٤/٣ هامش ٣، وقد ذهب الغزالي في كتاب آخر إلى أنه من قول بعض الصحابة، انظر ميزان العمل: ٥٢ طبعة مكتبة الجندی، وأنكر ابن تيمية أن يكون حديثاً، وشاركه في ذلك ابن حجر الذي ذكر أنه من كلام إبراهيم بن عيلة، وانظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ص ٦٠ والهوامش الموجودة بها، وهو من تحقيق الشيخ محمود فايد، مطبعة صبيح ط ١٩٨٥/٢.

(٢) قوت القلوب للمكي ٣٨١/١.

(٣) عوارف المعارف (وهو ملحق بالإحياء) ١١٦/٥.

الزاوية معتقداً أن ترديد عبارة : الله أكبر يهدم سور القسطنطينية، فهو ذو فهم سقيم متخاذل؛ لأن الله تعالى جعل للنصر أسباباً وسُنناً معنوية ومادية يجب الأخذ بها ليتحقق وعده بنصر المؤمنين ومعونتهم، فإذا فرطوا فيها فليس لهم أن ينتظروا من الله عوناً ولا مدداً، وقد انهزم المسلمون في بعض الوقائع على عهد الرسول ﷺ، وبين لهم القرآن أن ذلك يرجع إلى أن الشيطان استزلهم ببعض ما كسبوا، ثم ذكر القرآن أن ذلك يرجع إليهم ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٦٥) (١) وقد حاول الصحابة أنفسهم غزو القسطنطينية وتمكنوا من حصارها، ولكن لم يتمكنوا من فتحها؛ لأن ما وضعه الله من الأسباب لتحقيق هذا الفتح لم يكن قد تحقق لهم في ذلك الوقت، ولم يكتفوا بالدعاء مع أن الدعاء من مثلهم يستجاب؛ لأنهم أقوى يقيناً، وأظهر قلوباً، وأشد إخلاصاً. وقد أثنى الله عليهم وشهد بالفضل لهم، وقد ظلت هذه المدينة مستعصية على الفتح حتى فتحها الله على يد محمد الفاتح العثماني بعد ذلك بقرون (١٤٥٣ م)، ولم تكن تلك الدعوة المتخاذلة لتواجه حروب الروم والصليبيين والتتار، ولكن هذه الحروب كانت تحتاج إلى حشد وقوة وإعداد، وتخطيط، ووحدية، وتضحيات، إلى غير ذلك من أسباب النصر التي تجري بها سنن الله على الخلق جميعاً. وقد وقع شيء من ذلك بين عبد الله بن المبارك الذي كان يحج عاماً ويجهاد عاماً، والفضيل بن عياض الذي كان من الزهاد الحريصين على ملازمة الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، ولعله كان يرى أن الاعتكاف بهما خير من الجهاد في سبيل الله، وقد أرسل إليه ابن المبارك بهذه الأبيات :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنجورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب

(١) وراجع الآيات ١٥٢، ١٥٣، ١٥٥ من سورة آل عمران .

لا يستوى وغبار خيل الله في أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت، لا يكذب^(١)
ويمثل هذا الفهم لابن المبارك الفهم الصحيح لمكانة الجهاد الذي هو من أفضل
العبادات والقربات عند الله تعالى .

ولكن ظروف الهزيمة والضعف التي أحاطت بالمسلمين كانت ذات أثر في
تحريف المفاهيم، وكان يؤدي إلى هذا التحريف - كذلك - ما أصاب الحركة العلمية
من توقف وتقليد وجمود، وقد ظل هذا الفهم المحرف للجهاد مستمراً حتى
مشارف العصر الحديث، فعندما أراد مراد بك - أحد زعماء الماليك الذين كانوا
يحكمون مصر قبل الحملة الفرنسية - أن يتوجه لحرب نابليون عند غزوه لمصر
١٧٩٨ م كان الصوفية يجتمعون في الأزهر كل يوم لقراءة البخاري وغيره، ومن
بينهم مشايخ فقراء (صوفية) الأحمديّة، والسعدية، والرفاعية، وغيرهم من
طوائف الفقراء وأرباب الأشاير (الرايات)، وكانوا يذهبون كل يوم للأزهر
فيجلسون للآذكار، وتجتمع أطفال الكتاتيب للدعاء، وتلاوة اسم الله تعالى :
اللطيف^(٢) ؛ ظنا منهم أن هذا يكفي - دون أخذ بالأسباب - لتحقيق النصر على
جنود نابليون .

وعندما ذهب الخديوي إسماعيل إلى الحرب في الحبشة، وانهزمت جيوشه بها
أمر العلماء بقراءة البخاري، فلم يتغير من الموقف شيء، فغضب عليهم وصاح
فيهم: إما أنكم لا تقرأون البخاري، وإما أنكم لستم بعلماء^(٣): ثم قال لهم إنكم
لستم من السلف الصالح؛ لأن الله لم يدفع بتلاوتكم شيئاً، ولكن أحد العلماء
أجابه إجابة مفحمة، بأن من شروط قبول الدعاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،
فإن لم يتحقق ذلك سلط الله على الناس شرارهم، فيدعو خيارهم فلا يستجاب
لهم، وعندها تصاغر الخديوي وانكسر؛ لأنه ووجه بما أحدثه في مصر من إنشاء

(١) راجع تفسير ابن كثير في تفسير الآية الأخيرة من سورة آل عمران .

(٢) انظر/ العقاد : محمد عبده ص ٤٢ .

(٣) السابق : ٤٤ .

المحاكم المختلطة التي تؤدي إلى ظلم المصريين لحساب الأجانب، والتي يكون الحكم فيها بغير شرع الله تعالى، ثم ما سمح به من شرب الخمر، وغيره من المنكرات (١).

(هـ) وإذا كان مفهوم الجهاد قد انحرف على يد بعض الصوفية الذين جعلوا الجهاد الأكبر هو جهاد النفس، وانشغلوا به عن سواه فإن بعض المفكرين في العصر الحديث قد دعوا إلى إسقاط فريضة الجهاد من أساسها، حتى في تلك الحالات التي قال الفقهاء: إن الجهاد فيها يجب على سبيل فرض العين، أي يجب على كل قادر عليه؛ وذلك عندما يحتاج عدو المسلمين أرضهم وبلادهم، ومن ظهر لديهم هذه الأفكار الانهزامية السيد: أحمد خان (ت ١٨٩٨) الذي كان من قادة الإصلاح في الهند بعد احتلالها، والقضاء على الحكم الإسلامي فيها على أيدي الإنجليز ١٨٥٧م، وقد دعا إلى اتباع النمط الغربي في الحضارة، كما دعا إلى محاكاة الغربيين في طرق معيشتهم، وكان من أخطر ما قاله: إنه حاول فهم الإسلام نفسه بطريقة غريبة؛ وقد فعل ذلك تقريباً إلى الإنجليز، الذين فرضوا سيادتهم على الهند، وأرسلوا إليها المبشرين الذين بذلوا أقصى جهودهم لإخراج المسلمين من دينهم، ويسروا للهندوس غير المسلمين سبل التعليم، وتقلد الوظائف والمناصب في الدولة، ومع ذلك وجدوا من أحمد خان نصيراً يصدر الفتاوى بأن الجهاد غير مطلوب بدعوى أن المسلمين يتمتعون بحماية الإنجليز، ولا يتعرضون للقهر على أيديهم، وأنهم لا يصدونهم عن فريضة من فرائض دينهم؛ وقد ترتب على هذا الفهم أنه أسقط فريضة الجهاد مع ما كان يناله المسلمون من قهر على أيديهم، أو على أيدي الهندوس، بل إنه دعا إلى موالاته الإمبراطورية البريطانية، ومسألة الإنجليز.

وقد أوضح أنه يقصد بما تحدث به من إسقاط فريضة الجهاد إلى هدفين:

- ١ - أن يعرف الجاهلون بالنصوص الشروط التي وضعها الإسلام للجهاد وأنها لا تنطبق على الإنجليز، ومن ثم لا يعرضون أنفسهم للفتنة والانتقام.

(١) انظر: د / محمد رجب البيومي: علماء في وجه الطغيان، الدار القومية للطباعة والنشر، د. ت ص ١١٥

٢ - أن تعلم الحكومة الإنجليزية التي يعيش المحمديون^(١) (أي المسلمون) في كنفها أن المحمدين لا يعتقدون بمشروعية القتال ضدهم، وسوف تكون النتيجة التي تنجم عن هذين الهدفين؛ أن تتوثق عرى الوفاق بين الحكام والمحكومين، وبين الرعايا البريطانيين عامة والمحمدين حتى يستقر الأمن والسلام دائماً في هذه البلاد^(٢).

وكان ممن دعا إلى هذا الرأي - في الهند أيضاً - ميرزا غلام أحمد القادياني (ت ١٩٠٨ م) وقد ألف كتاباً أسماه كتاب «براهين أحمدية» ضمنه أفكاره حول الجهاد، وقد حث فيه العلماء والجمعيات الإسلامية على إقناع الحكومة الإنجليزية بأن المسلمين أمة هادئة مسالمة للإنجليز، كما دعاهم إلى إعلان حرمة الجهاد^(٣)، وكان مما قاله: «لقد ظلمت منذ حداثة سني، وقد ناهزت اليوم الستين أجاهد بلساني وقلمي؛ لأصرف قلوب المسلمين إلى الإخلاص للحكومة الإنجليزية، والنصح لها، والعطف عليها، وألغى فكرة الجهاد التي يدين بها بعض جهالهم، والتي تمنعهم من الإخلاص لهذه الحكومة. وأرى أن كتاباتي قد أثرت في قلوب المسلمين وأحدثت تحولاً في مئات آلاف منهم»^(٤).

ولم تكن هذه هي الزلة الوحيدة له، بل إنه انتهى إلى آراء مضادة للعقيدة الإسلامية، حيث ادعى أنه المسيح المنتظر، وأعلن حاجة الناس إلى وحي جديد ونسبة جديدة، ثم تطورت آراؤه فأعلن أنه نبي مرسل من عند الله، وأن الإيمان به

(١) يقوم الإسلام على التوحيد الخالص، والمسلم ينتسب إلى الإسلام ويتصف به فيوصف بأنه مسلم، ولا يوصف بأنه محمدي، وإما ذلك تقليد لبعض أتباع الأديان الأخرى الذين ينتسبون إلى أنبيائهم، وقد سمي الله تعالى أتباع الرسول «المسلمين» قوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ (الحج: ٧٨).

(٢) انظر: رودلف بيترز: الإسلام والاستعمار: عقيدة الجهاد في التاريخ الحديث، دار شهدي للنشر ١٩٨٥، ص ١٦٠، ١٦١، ، وكذلك ٦٨، ٦٩، ١٥٨، ١٥٩، وانظر: د/ محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة ط ١٩٧٥ ص ٤٣.

(٣) انظر: رودلف بيترز، المرجع السابق ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٤، والفكر الإسلامي للدكتور البهي ٤٣، ٤٤.

(٤) رودلف بيترز، مرجع سابق ٤٩، ٥٩، وما بعدها، ٧١ وما بعدها، وكذا الشيخ محمد الخضير حسين: القاديانية، طبعة مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٠٢ ص ٦٦ وما بعدها.

واجب، وهي أراد تتضاءل إلى جانبها آراؤه عن إسقاط الجهاد، وقد تصدى للرد عليه عدد كبير من مفكري المسلمين يأتي على رأسهم الدكتور محمد إقبال والسيد / أبو الحسن الندوي، وفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشيخ محمد الخضر حسين.

ويهمنا الآن الإشارة إلى أن إسقاط فريضة الجهاد قد أصبح مبدأ أو فلسفة لدى بعض المفكرين، وقد كان هذا أسوأ ما تردت إليه فكرة الجهاد التي كانت في عصور مجد الإسلام عاملاً من عوامل قوة الإسلام والمسلمين.

ثم نشير - قبل أن ننتقل إلى فكرة أخرى - أن حركة الجهاد كانت تحيا في بعض الأحيان، على الرغم من عوامل الضعف التي كانت تنتابها نتيجة لتلك الأسباب الكثيرة التي ذكرناها، وحدث هذا أحياناً بسبب انضمام عناصر جديدة إلى الإسلام كالعنصر التركي الذي تمثل في الدولة السلجوقية، ثم في الدولة العثمانية، وكلتاهما أضافت إلى أرض الإسلام بلاداً جديدة. فالدولة السلجوقية اتجهت جهودها الكبرى نحو الهند، والدولة العثمانية اتجهت بشغلها نحو شرق أوروبا، وكان من آثار ذلك: أن دانت بلاد كثيرة منها بالإسلام. ثم حدث هذا أحياناً في مواجهة الغزو الصليبي الذي حاول اجتياح الأرض الإسلامية على مدى قرنين من الزمان، ثم حدث كذلك في مواجهة الدول الاستعمارية التي اتجهت إلى استعمار بلاد الإسلام في العصر الحديث، مثلما حدث في الهند بتأثير المجاهد الشهير السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٨٤٢م) الذي ألهم شعلة الجهاد والفداء، وبث روح النخوة والجهاد في صدور المسلمين^(١)، وفي الجزائر بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري، ومثلما حدث في بقاع أخرى قديماً وحديثاً.

ولكن على الرغم من ذلك كله كان الطابع العام الذي يمكن أن نصف به فكرة الجهاد هو طابع التدهور، والضعف، والتحريف الذي انتهى صراحة عند بعض المفكرين إلى إسقاط فريضة الجهاد، وقد أدى ذلك فيما أدى إلى وقوع أكثر العالم الإسلامي تحت براثن الاستعمار الأوروبي الذي لم تتحرر البلاد الإسلامية من

(١) كتاب د/ البهي السابق ٤٤، ٤٥.

مظاهره العسكرية إلا منذ وقت غير بعيد .

* وما تزال فكرة الجهاد تعاني من سوء الفهم، والقصد إلى التحريف على أيدي بعض المفكرين والسياسيين الغربيين من الأوروبيين والأمريكيين، مستندين إلى بعض الحوادث التي وقعت في العالم الإسلامي، أو في خارجه، وكان ذلك - عندهم - سبباً في تشويه فكرة الجهاد التي يسعى أصحابها إلى الدفاع عن أوطانهم، وتحريرها من المستعمرين الغاصبين. وقد وصف هذا الجهاد عندهم بأنه إرهاب، دون تفريق بين الجهاد المشروع، والإرهاب الغاشم الذي لا يستند إلى حق، ولا يدافع عن قضية عادلة، بل إن بعض هؤلاء قد تجاوز الحد فوصف الإسلام نفسه بأنه إرهاب، وأن نصوصه التي تحدثت عن تشريع الجهاد، وقتال المشركين تسوغ هذا الإرهاب، وتدعو إليه^(١). وليس هناك ما هو أبعد عن الحق من مثل هذا القول الذي يجد من يروجه وينشره، ويتخذ منه ذريعة وسبباً للعدوان على المسلمين .

ولعل ما أسلفناه من حديث عن انتشار الإسلام بالدعوة السلمية، وما وضعه الإسلام من ضوابط، وآداب، ومقاصد للجهاد يكفي لتفنيد مثل هذه الاتهامات الجائرة، ويشير إلى البواعث المستترة من ورائها، كما تدل عليها تلك النظريات الغربية التي تتحدث عن صدام الحضارات، ونهاية التاريخ، وهي نظريات تحتاج إلى مناقشات لا يتسع لها المقام^(٢) .

والحمد لله أولاً وآخراً .

(١) ولعل آخر هذه الكتابات وأشدّها ما جاء على لسان البابا بنديكت السادس عشر، بابا روما في محاضراته التي ألقاها في إحدى الجامعات الألمانية يوم ١٠ / ٩ / ٢٠٠٦م وذكر فيها حواراً جرى بين الإمبراطور البيزنطي: مانويل الثاني (١٤٢٥م) وعالم فارسي، وكان مما جرى في هذا الحوار بينهما ما قاله الإمبراطور: «أرني ما الجديد الذي جاء به محمد، لن نجد فيه إلا أشياء شريرة وغير إنسانية، مثل أمره بنشر الدين الذي يبشر به بحد السيف» .

(٢) انظر: مثلاً لهذه المناقشات، في بحث للمؤلف، بعنوان: الإسلام والغرب في ظل العولمة، وقد نشر ضمن أعمال المؤتمر الرابع للفلسفة الإسلامية، الذي عقد بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة، طبعة الهاني ١٩٩٩م ص ٤١٣-٤٥٢ .